الأدب المقارن ومهاد النقد الثقافي في نسق المدرسة الأمريكية
قراءة في الروافد والمتشكلات

الدكتور: ميسوم عبد القادر
الإطار العلمي : الأدب المقارن وتحليل الخطاب
كلية الآداب واللغات قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف-

ملخص

دأب الفكر الأكاديمي في شتى مجالات المعرفة الإنسانية على إخضاع العطاء البشري بمختلف تفرعاته، إلى ما يشبه ضربا من التسييج المصطلحاتي، وهذا في محاولة منه لدرء أشكال التداخلات في استعمالات المصطلح، ومثل ذلك يقال على مصطلح " النقد الثقافي" الذي يواجه كسائر المصطلحات الأخرى فيما يبدو صعوبة في التحديد والطرح، إنه يشكو أكثر من تداخل وليس في الأمر ما يدعو إلى الاستغراب لأن فهمه في أبعاده المختلفة خلق تشويشا في ساحة النقد الأدبي المعاصر، خصوصا في ضوء نظريات ما بعد الحداثة لمقاربة النصوص الأدبية والكشف عن حركتها الخصيبة للوصول إلى فهم أعمق للخصائص التي تميز هذه الكتابة عن تلك.

وبرغم كل ما يشوب هذا المصطلح في الاستعمال لمفهومه دائم التزأبق، فإنه يستوجب علينا وبعد كل ما كتب في الموضوع أن نخص حقبة الانطلاق عند المدرسة الأمريكية التي تجاوزت المواقف الضيقة معلنة قطيعة منهجية ومعرفية مع الفكر الأوروبي(نظرة شوفينية) الأمر الذي سمح لها بنوع من الريادة معتمدة في ذلك على المزاوجة بين الأدبي والفني وهي مزاوجة كثيرا ما تفترض تداخلا للاختصاصات والثقافات (رحاب كوسمبوليتي)،مما حدا بالبعض إلى اعتبار هذا التوجه النقدي أحد الأنظمة النقدية المنافسة للأدب المقارن لا اعتبارها من الأدب المقارن، وهذا يقودنا إلى التساؤل عن النقد الثّقافي الذي يبحث عن أصل ومنشأ ودينامية الأنساق وتمظهرها في النصوص الإبداعية كونها خطاب أدبي وثقافي وما فيه من علاقات إنسانية أدبية فنية جمالية. قائمة على «التأثر والتأثير والتشابه والاختلاف والتداخل والتفاعل».

فهل يستنسخ النقد الثقافي مهمة الأدب المقارن في مقاربة النصوص الأدبية في شؤونها الداخلية والخارجية وتنوير فكرة المقارنة بين النصوص الإبداعية لمحاربة العزلة الزائفة ؟ وفضلا عما تقدّم هل

المنارة للاستشارات

توسيع دائرة النقد الثقافي يأتي في كل الأحوال على حساب تحويل البحث الأدبي إلى سيكولوجية اجتماعية وتاريخ ثقافي؟

المداخلة:

دأب الفكر الأكاديمي في شتى مجالات المعرفة الإنسانية على إخضاع العطاء البشري بمختلف تفرعاته، إلى ما يشبه ضربا من التسييج المصطلحاتي، وهذا فيمحاولة منه لدرء أشكال التداخلات في استعمالات المصطلح، ومثل ذلك يقال على مصطلح " النقد الثقافي" الذي يواجه كسائر المصطلحات الأخرى فيما يبدو صعوبة في التحديد والطرح، إنه يشكو أكثر من تداخل وليس في الأمر ما يدعو إلى الاستغراب لأن فهمه في أبعاده المختلفة خلق تشويشا في ساحة النقد الأدبي المعاصر، خصوصا في ضوء نظريات ما بعد الحداثة لمقاربة النصوص الأدبية والكشف عن حركتها الخصيبة للوصول إلى فهم أعمق للخصائص التي تميز هذه الكتابة عن تلك.

وبرغم كل ما يشوب هذا المصطلح في الاستعمال لمفهومه دائم التزأبق، فإنه يستوجب علينا وبعد كل ما كتب في الموضوع أن نخص حقبة الانطلاق عند المدرسة الأمريكية التي تجاوزت المواقف الضيقة معلنة قطيعة منهجية ومعرفية مع الفكر الأوروبي(نظرة شوفينية). الأمر الذي سمح لها بنوع من الريادة معتمدة في ذلك على المزاوجة بين الأدبي والفني وهي مزاوجة كثيرا ما تفترض تداخلا للاختصاصات والثقافات (رحاب كومبوليتي)،مما حدا بالبعض إلى اعتبار هذا التوجه النقدي أحد الأنظمة النقدية المنافسة للأدب المقارن لا اعتبارها من الأدب المقارن، وهذا يقودنا إلى التساؤل عن النقد الثّقافي الذي يبحث عن أصل ومنشأ ودينامية الأنساق وتمظهرها في النصوص الإبداعية كونها خطاب أدبي وثقافي وما فيه من علاقات إنسانية أدبية فنية جمالية. قائمة على «التأثر والتأثير والتشابه والاختلاف والتداخل والتفاعل».

فهل يستنسخ النقد الثقافي مهمة الأدب المقارن في مقاربة النصوص الأدبية في شؤونها الداخلية والخارجية وتنوير فكرة المقارنة بين النصوص الإبداعية لمحاربة العزلة الزائفة ؟ وفضلا عما تقدّم هل توسيع دائرة النقد الثقافي يأتي في كل الأحوال على حساب تحويل البحث الأدبي إلى سيكولوجية اجتماعية وتاريخ ثقافي؟ هذه الإشكالية ومخارجها هي التي تحكم قلق هذه المداخلة وتوجه مسارها.

ما الأدب المقارن

المنارة للاستشارات

ربما بجدر بنا قبل الخوض في إشكالية المنهج المقارن ونشأة مصطلح " الأدب المقارن" إيضاح أمرين:

الأمر الأول:

ليس مصطلح " الأدب المقارن" العربي، أكثر من ترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي littérature comparée والمصطلح الانجليزي comparative Litérature وعليه لا يمكن لأي دارس أن يستوعب ماهية هذا الحقل المعرفي دون العودة إلى دلالاته في الثقافة الغربية الحديثة التي طورت هذا العلم استجابة لسياقات ثقافية موجهة.

الأمر الثاني:

إن مفهوم " الأدب المقارن" أثار جدلا كبيرا بين أوساط الدارسين الغربيين في بداية نشأته فنجد مثلا جملة من المفاهيم تتعدد استعمالاتها من باحث إلى آخر قد نحصي بعضا منها:" تاريخ الأدب المقارن / التاريخ الأدبي المقارن/ تاريخ المقارنة / واقترح M.F Guyard مصطلحا بديلا هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية"[1] والملاحظ أن كلمة " تاريخ" هي الكلمة المضافة في المقترحات البديلة في المفهوم الفرنسي: لهذا يتضمن مفهوم " الأدب المقارن" بالضرورة ما هو مسكوت عنه.

وقد بين رائد الأدب المقارن في الوطن العربي " محمد غنيمي هلال" النسق المفهوماتي لهذا المصطلح في كتابه " الأدب المقارن" مقتفيا التصور الفرنسي، نرى من الضروري نقله حرفيا فيقول:"مدلول الأدب المقارن تاريخي، ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو ماضيها وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر .. سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية، أو التيارات الفكرية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب"[2].

لا يسعنا هنا أن نحلل كل جزئية من هذا التعريف- على طوله- فهو يقدم لنا رؤية شاملة، وعلى أية حال يبدو أن افتقار المصطلح إلى الدقة كان له بعض الفضل في مقدرته على استيعاب مناطق معرفية جديدة أخذت تدخل نطاقه بعد منتصف القرن العشرين .

المنارة للاستشارات

إن إشكالية هذه الدراسة ستكون مرتبطة بفهم طبيعة المقارنة كمقاربة منهجية في سياق الدراسات الأدبية وذلك تمهيدا للتوصل إلى بعض الخطوط العامة لحراك الأنساق.وفي هذا الجرد الذي سيأتي سنبين المراحل الجنينية لمصطلح " النقد الثقافي والدراسات الثقافية" لتوضيح التداخلات والتنازعات على مجال الاختصاص مع " الأدب المقارن" خصوصا عند المدرسة الأمريكية.

المدرسة الأمريكية (النقد الجديد)

لقد بقي تصور المدرسة الفرنسية للأدب المقارن التاريخي مهيمنا إلى عهد انعقاد المؤتمر الثاني للجمعية العالمية للأدب المقارن في Chapel Hill في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1958.
فقد ظهر تباين حاد في مواقف المتشيعين للفكر الفرنسي وبين أنصار التصور الجديد تجاه مفهوم الأدب المقارن في طرحه الابستيمولوجي، وكان أشد الآراء تطرفا رأي الثنائي الأمريكي (René Wellek / Austin Warren) والقائل –دون مواربة– بواجب المراجعة الجذرية لمفهوم المقارنة:

أ- حدا اصطلاحيا

ب- منهج المقارنة

ت- الآفاق المستقبلية لهذا الحقل النقدي في ظل تداخل الاختصاصات.

ولقد تناول الباحث سعيد علوش في كتابه " مدارس الأدب المقارن" عددا من النظريات التي يعود إليها الفضل في بلورت فكرة (سيميائية المقارنة) في جذورها الأولى متسائلا: إلى أي حد يمكن الملاءمة بين المقارنة كفلسفة فهم وتأويل من جهة، وبين " الأدب" من جهة أخرى حتى نحافظ على الانسجام الذي تتطلبه كل مقاربة نظرية(3) ؟ أي أن مفهوم الدراسة المقارنة يختلف ما بين العلمي والفني وهنا يكمن الالتباس. وبصورة أخرى، أيّ الحدين يلزم الآخر هل الأدب هو الذي يقارن أم أن المقارنة هي التي تخضع للأدبية؟

لقد أثار النقد الأمريكي أكثر من زاوية " لأزمة الدب المقارن" ونبه إلى أكثر من زلة يتعين تداركها قبل فوات الأوان، والتي لابأس أن نخص بعضا منها بوقفة خاطفة فيما يلي:

1. فشل المدرسة الفرنسية في وضع ضوابط صارمة لهذا الحقل المعرفي الجديد بطابعه المعلمن المتوارث عن عصر الحتمية التاريخية والعلوم التجريبية البحتة، وقد ظهر نقاد بارزون في هذا الاتجاه منهم :(Sainte Beuve / Hippolyte Taine/ Brunetière) "فربط بعض

المنارة للاستشارات

هؤلاء النقاد الإبداع بعوامل العرق والعصر والبيئة، ووضعوا قواعد ترجع الأدب والإبداع بوجه عام إلى تصنيفات عامة "[4] كما تطبق القوانين في العلوم الطبيعية على العناصر الجزئية والكليات مما أدخل الدراسات المقارنة في حالة من الركود تنذر بقرب موت بطيء.

2. إن الاقتصار على الآداب القومية وحدها يضر بالإبداع، وهو ما حصل مع الدراسات المقارنة الفرنسية التي غرقت في اللف والدوران حول الأدب الفرنسي مؤثرا كان أم متأثرا ورفض الاهتمام بالتأثيرات الأجنبية، الشيء الذي يرسب في الأذهان بإقليمية ضيقة إن لم تكن شوفينية، ولا عجب في ذلك ولا غرابة " فقد كانت نشأة الأدب المقارن في فرنسا مشوبة بعاملين مهمين على هذا الصعيد هما: المركزية الأوروبية، والبعد الاستعماري... حرصا على خلق ثقافة فرانكفونية تتأثر بالثقافة الفرنسية "[5] وهو ما يتنافى وطابعا عالميا منفتحا يشكل عمادة الدراسات المقارنة وركنها الركين.

3. التركيز والتأكيد على عامل العلاقة السببية الواجب توفرها في كل دراسة تتخذ لها المبحث المقارن إطارا أكاديميا، مما يقول صراحة" أن انتقال مادة أدبية من أدب إلى أدب قومي آخر ليس مسألة عشوائية، بل هو علاقة تاريخية قائمة على السببية"[6] وهذا ديدن الدراسات المقارنة من منظور المدرسة الفرنسية، وقد اصطبغ بأجواء الفلسفة الوضعية .Positivisme.

لقد ضيق مفهوم المدرسة الفرنسية حقل اشتغال الأدب المقارن بحصره في جدلية التأثر والتأثير المبررة، بملف للشواهد والأدلة الثبوتية باعتقادها أن العملية الإبداعية لا تتحكم فيها الطفرة باستمرار، بل نصوص متلاحقة ومتعالقة فيما بينها نسبا وسببا، ويأتي دور الأدب المقارن للكشف عن هذه الأنساق المتبادلة. هذه بعض المآخذ التي طرحتها المدرسة الأمريكية في وجه نظيرتها الفرنسية، ولكن ماهي البدائل المقترحة من قبل المدرسة الأمريكية للخروج بالمقارنة من ضيق الأفق إلى رحابة الأذواق والأنساق؟

إن المقالة الانتقادية ل Wellek يعود إليها الفضل في إثارة أكثر من دائرة جدل فيما يخص مسار الدرس المقارن، بإعلانه قطيعة معرفية ومنهجية مع مفهوم المدرسة الفرنسية، فلقد دفع بالمقارنة من الحقل التاريخي والتأريخ الأدبي إلى النسق الجمالي، مما أكسبها نفسا جديدا سمح لها بنوع من الريادة

المنارة للاستشارات

في إطار نزعة عالمية وأنثروبولوجية ثقافية وأدبية، رسمت المعالم الأولى لموقف الرأي الأمريكي المهيمن سياسيا واقتصاديا، والمسيطر على أدوات العلم والتكنولوجيا والاتصالات والمعلوماتية، وفق مبدأين اثنين وضحهما الثنائي الفرنسي CL. Pichois/ A.M. Rousseau .

1. **المبدأ الأخلاقي:**

يعكس موقف أمة كبيرة ومنفتحة على العالم، وهي منشغلة من ثم بإعطاء كل ثقافة أجنبية ما تستحقه من عطف ديمقراطي، وواعية في نفس الحين بجذورها الغربية .

2. **المبدأ الثقافي :**

يسمح للأمريكيين بأخذ بعد من هذه البانوراما الواسعة التي يقدمها القديم إلى حدود القرن 20 وأن تحتفظ بالقيم الجمالية والإنسانية للأدب وملاحقة تجريب المناهج والتأويلات"(7)

فتسمية (المدرسة الأمريكية) لا تعدو أن تكون لفظا دالا على جماعة من الباحثين والدارسين من شتى الأصقاع والبقاع، تجمع فيما بينهم رؤية شبه موحدة المقام تخص طبيعة وماهية (الأدب المقارن)، مع اختلاف ملحوظ في المشارب المعرفية والألسنية والقومية، زد على ذلك حداثة الحضارة الأمريكية التي تكونت من مزيج من الجنسيات والثقافات التي انطمرت جذورها وأصولها، وبالتالي كان هناك عمق استراتيجي كبير يستوعب تدريجيا مشاريع الثقافات الأخرى لكل العالم هو الامبريالية (الثقافية)(8) .

فالخلفية الحقيقة لذلك التباين بين المدرستين (الفرنسية / الأمريكية) يرجع إلى ذلك التحول الجذري في مقاربة النصوص الأدبية من السياق إلى النسق" وتعد المقارنة أداة معرفية أكيدة في كل قراءة، وجل القراءات الجديدة والمعاصرة لأنها لا تني عن استدعاء الرصيد الثقافي للقارئ وحثه على مواجهة السابق باللاحق / المتشابه بالمخالف/ المنسجم بالنقيض / الجزئي بالكلي/ الثابت بالمتحول، مما يتطلب معرفة واسعة وثقافة عالية ولغات عديدة"(9).

وعلى هذا: فالمقارنة ليست الموازنة بين نصين يبينان عن قدر من أوجه التماثل والتقابل، لأن مثل هذه (المقابلة/ الموازنة) قديمة في تراثنا النقدي العربي القديم، ويكفي أن ترجع إلى الخزانة وتقلب صفحات كتب تحمل عناوين تشير من بعيد إلى التبادلات والتأثيرات مثل: (الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني/ الاقتباسات/ الانتحالات/ المعارضات). وكلها تؤكد على بصمات الأخذ والرد والمد ما بين النصوص، في إطار اللغة الواحدة. بغية القول بأفضلية إحداها على الأخرى،

المنارة للاستشارات

ولم يخرج هذا النمط من الدراسة عن فكرة السرقات الشعرية، أما المقارنة فقد وسعت مجال الدراسة لتشمل الأنساق المضمرة والمتبادلة بين الآداب خارج حدودها اللسانية والقومية.

إضافة إلى ما تقدم يظل التعريف المقترح من قبل CL. Pichois/ A.M. Rousseau شبه مصر ضمنا على تداخل الاختصاصات، ويلح على أن" الأدب المقارن وصف تحليلي ومقارنة منهجية تفاضلية وتفسير مركب للظاهرة اللغوية والثقافية من خلال التاريخ والنقد والفلسفة وذلك من أجل فهم أفضل للأدب بوصفه وظيفة نوعية للروح الإنسانية "[10] و الملاحظ على هذا التعريف، أنه يشرح الامتدادات المعرفية والمنهجية للأدب المقارن في سلسلة من الثنائيات المنفصلة –سابقا– والتي عادت لتتكامل وتتفاعل من جديد، في شكل الوصف/ التحليل/ المنهجية /التقابلية/ التفسير / التركيب/ التاريخ/ النقد/ الفلسفة. ولمثل هذا الطرح روج Harry Levin ليحسم الأمر معتبرا" أن الأدب المقارن علم دراسة العلاقات بين الأدب من ناحية وبين ميادين المعرفة الأخرى بين الأدب والتصوير والنحت والمعمار والموسيقى، وهو نوع من التداخل بين التعبير الأدبي وصور التعبير الأخرى"[11] . أليست هذه هي الأنساق التي مهدت للدراسات الثقافية.

وراء هذه التداخلات والمصادر الثقافية والتأثرات والإيحاءات، نفهم أن الفنون قد سعت لأن تقترض من بعضها البعض[12] Painting Is mute poetry, and Poetry a Speaking Picture وفي هذا القول دلالة.(الرسم هو شعر صامت والشعر هو لوحة متكلمة)، فقد كتبت الأشعار مثلا على نية أن تضاف إليها الموسيقى فيما بعد، وكلها أذواق متفاعلة تتوهج فيها الأفكار وتتصل عضويا وإن انفصلت ماديا " غير أن هذه الصلات ليست تأثيرات تبدأ من نقطة معينة ثم تحدد تطور بقية الفنون ، فيجب أن نتصورها بدلا من ذلك على أنها مخطط معقد من صلات دياليكتية"[13] معناه أنها مضمرة وليست علنية. وعليه فالأدب المقارن في نسق المدرسة الأمريكية لم يعد أدبيا محضا بل أضحى ذا منحى معرفي شمولي عام يعايش فيه الأدبي ذلك الفني والفكري ، ودون داع لفعل تعسفي ما بين هذه المجالات المتكاملة والمتفاعلة على الدوام.

الأدب المقارن والدراسات الثقافية

إن المتمعن في واقع تصورات " الدراسات المقارنة"، لا محالة واقف على مجال معرفي إشكاليته الكبرى تتموقع على مستوى فعل الضبط لحدوده ومادة اشتغاله، أكثر مما هي قائمة على مستوى

المنارة للاستشارات

منهج معتمد. إنه بيت القصيد في عريضة اتهام لأدب مقارن كاد أن يصبح كل شيء، ولاشيء في ذات الوقت، هكذا علق عليه (John Fletcher) بقوله:"إذا تمعنا في هذه التسمية أمكن لنا أن نتوقع من مسماها منهجا يتطور ليستقل عن غيره من فروع النقد الأدبي، ولكن ذلك لم يحدث لأن هذا الفرع عرف بعدم دقة تقنياته والاتساع الغامض لاهتماماته، فالأدب المقارن يتداخل مع التاريخ الأدبي والفكري ومع علم الاجتماع الأدبي ومع علم الجمال في كثير من مجالات هذه الفروع بدل أن يطور منهجا خاصا به "[14]

من هذا المنظور، تكاد الأسئلة نفسها تطرح من جديد، هل من حظ الأدب المقارن أن يتقاطع مع الحقول المحاذية له؟ أم أن هذا التداخل يمثل سوء حظ يمنعه من إعلان استقلاليته ويجعله خاضعا في – أدواته المنهجية- باستمرار إلى علوم خارجة عن اختصاصه؟ وبصرف النظر عن هذا النقاش المحتدم فإن جل الخطابات النظرية اتفقت على أنه" ليس للأدب المقارن من منهجية خاصة، إذ تطبق عليه كل القوانين الأساسية في الجرد والفحص والتأويل مما يتطلب الاستعداد اللساني والثقافي"[15] والنتيجة هي أن هذه الصبغة الشمولية والتباين المنهجي أخلط حسابات " الدراسات المقارنة" وانتهى بها إلى مفترق طرق مرة ثانية.

من نافلة القول التأكيد على أن انتهاء " الدراسات النقدية" إلى نفق ضيق لا يعني القول بنهايته فمن آراء Wellek رائد المدرسة الأمريكية، إلى Remak يجدد الأدب المقارن كل مرة ثوبه ليبدل ثوبا باليا بآخر قشيب،"فلقد قطع طريقا طويلا عابرا بمرحلة توضح مبادئه المنهجية وكذا استقلاله كدرس علمي، وفيما إذا كان جزءا من نظرية الأدب، أو من علم الأدب العام وفيما إذا لم يكن مجرد طريقة منهجية محددة أو منهجية تكوينية أو مجرد وجهة نظر"[16] فقد بدأت الشواهد تترى مؤكدة أن ثمة تحولات نظرية ومنهجية في ظل التغيرات العالمية الجارية الآن " تعني انحلال الأدب المقارن في حقول جديدة"[17] محملة بمشروع ثقافي جديد ومجدد يفتح آمادا أخرى للدراسات المقارنة للأدب.

دون إغفال قدر ليس بالهين في صلب الموضوع، لا سيما ما كان متعلقا بموقف المدرسة الفرنسية في محاولة استبعاد" الأدب المقارن" من ميدان النقد الأدبي. ها هي المدرسة الأمريكية تقدم محاولات تجديده من الداخل، تمثلت في انفتاحه على القراءات النسقية كالنقد الجديد، ونظرية التلقي والتناص،

المنارة للاستشارات

وهذا أمر بات مشهودا في ظل خطاب نقدي معاصر اتسم بغزارة التجريب والتنظير وتنوع المناهج، وراحت نظريات ما بعد الحداثة والعولمة تزيد الحقل ارتباكا وتشعبا في مناهضتها للقواعد وازدرائها للقيود المنهجية وتنميط العالم ثقافيا وصهر الثقافات واختزال فوارقها الحضارية لصالح الامبريالية الأمريكية.

والحقيقة أن التنازع الاختصاصي القائم ما بين المجالات المتحاذية وثورة التكنولوجيا والعوالم الافتراضية، هو ما جعل البعض ينذر بنهاية الأدب المقارن. وقد لا يكون هناك وجود لهذا التوجه النقدي المقارن المتعارف عليه في بداية القرن 20 خصوصا مع ثقافات عالمية واحدة مهيمنة، أو في كنف أشكال التمايز الثقافي؟ هذه هي الأسئلة التي استرعت انتباه الباحث" محمد مدني" في مستهل كتابه(مستقبل الأدب المقارن في ظل العولمة)[18] وقد اختار أن يقرأ طالع هذا التخصص المعرفي في الإطار الثقافي الذي تنتجه العولمة. ومدى تأثيرها على مجالي الفنون والآداب وعلى منهج الدراسات الثقافية المقارنة خاصة وفق الرؤية الأمريكية العالمية .

يسعى الأدب المقارن عبر أتون المعترك المعرفي القائم الآن عالميا" إلى الانفتاح والتجاوب مع مناهج النقد الأدبي والنظريات الأدبية المتشعبة، بجوار مناهج البحث في تاريخ الأدب ودراسات الأدب العام والأدب المترجم، لتصبح كل هذه المناهج الأعمدة الرئيسة للأدب المقارن"[19] من هذا المعنى بالضبط يصعب ضبط هذا الحقل المعرفي ومراجعة آلياته وتجاوز عثراته المنهجية لأن "حتى البديل الأمريكي الذي حاول أن يقترب من النواحي الجمالية، غرق هو الآخر في المركزية الأوروبية وأغرق الأدب المقارن في زخم النظريات الجوفاء التي حاولت أن تمنحه بريقا زائفا"[20].

إن أي استعراض للآراء المطروحة يصلح لتوكيد الحقيقة القائلة بأن هناك أنساقا مجاورة تتربص بالأدب المقارن وتسعى للإطاحة بسلطانه بعضها قديم متأصل مثل نظرية الأدب، وبعضها في طور النشأة مثل (الدراسات الثقافية) أو(النقد الثقافي)، [21] فهو أحد الأنظمة المنافسة ، ففي دراسة بعنوان " الأدب المقارن النظرية / المنهج/ التطبيق 1998 اكتشف Steven.Totosy إمكانية تطوير منهج جديد يجمع بين خصائص الأدب المقارن وبين سمات النقد الثقافي واقترح أن يسميه الدراسات الثقافية المقارنة (comparative cultural stadies) [22] بهدف تمكينه من مواكبة المتغيرات التي أفرزتها العولمة وشكلت مأزقا كبيرا، وقفت أمامه جميع المعارف والعلوم بمفكريها

المنارة للاستشارات

حائرين معلنين عجزهم عن إيجاد البديل عن التقنية، ما دام أن كل تغيير لن يكون إلا عبر مؤسسات التقنية بوسائلها وبالتالي لا مناص من إيديولوجيتها المسيطرة.(الهيمنة)

فاتساع مساحة تداول المصطلح وعدم تحديده وتحديد منطقه ومنطقته منهجيا، هو الذي فتح ميادين عدة دخل من خلالها دعاة النقد الثقافي وحولوا دائرة الاشتغال النقدي من المجال الأكاديمي إلى مجال الثقافة، وصارت هذه التقاطعات المنافسة تهدد استمرار الأدب المقارن بثوبه القديم حتى في علاقته بالنقد الجديد ونظريات ما بعد الحداثة، مثله مثل العلوم الإنسانية الأخرى. وشواهد هذا ماثلة فيما قدمه الباحث عز الدين المناصرة في قراءته لكتاب " Arthur Asa Barget" النقد الثقافي.

استوقفنا هذا التعريف المبدئي والتمهيدي في نص الكتاب سننسخه حرفيا لما له من ميزة تفتح أفق إشكالية هذه المداخلة، يرى إيزابرجر أن :" النقد الثقافي نشاط وليس مجالا معرفيا خاصا بحد ذاته، فنقاد الثقافة يطبقون المفاهيم والنظريات على الفنون الراقية والثقافة الشعبية. ومهمة النقد الثقافي مهمة متداخلة مترابطة متجاوزة متعددة كما أن نقاد النقد يأتون من مجالات مختلفة ويستخدمون مفاهيم وأفكارا متنوعة وبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب، علم الجمال والنقد والتفكير الفلسفي وتحليل الوسائط ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية"[23] . أوليس هذا التعريف مطابق تماما مع تعريف " جون فليتشر" في مقاله " نقد المقارنة" والمذكور آنفا. وهو التعريف الذي انتهت إليه المدرسة الأمريكية في إعطائها مفهوما واسعا لمجال (المقارنة الأدبية) وربطها بباقي ميادين الإبداع رسما/ نحتا/ نغما .

وعلى هذا يمكننا الفهم بأن انفتاح الأدب المقارن على مختلف المجالات المعرفية هو سبب ضياع هويته وفقدان استقلاليته المنهجية. وتتكرر الأزمة من جديد، ففي دراسة للباحث عز الدين المناصرة ينقل إلينا قناعة أستاذ الأدب المقارن " توموفيرك" ولكننا نضطر إلى التركيز عليها لأنها توضح صلب الإشكالية التي نناقشها في القول الآتي: "إن مشروع توتوسي، قد أفرغ الأدب المقارن من طبيعته الأدبية، إذ اكتفى بتحويل كلمة أدب إلى ثقافة ليجعل من المبادئ التي وضعها لتحديث الأدب المقارن أساسا للدراسات الثقافية المقارنة. بالإضافة إلى ذلك يؤكد " فيرك" أن الأبحاث التي قام بها " توتوسي" في إطار الدراسات الثقافية المقارنة، تدخل كلها في الواقع ضمن ميادين البحث في الأدب المقارن "[24] ففي هذا القول إيضاح بأن مهاد النقد الثقافي هي الدراسات المقارنة التي

المنارة للاستشارات

حاولت أن تتخفف من طابعها الاصطلاحي المعقد لتبني موقفا استكشافيا عن الأنساق المضمرة التي زرعها المؤلف – بقصد أو بلا قصد–فالفضل يعزى إذن إلى الدراسات المقارنة في توجيه الأنظار إلى الموضوعات الجديدة لا إلى الدراسات الثقافية(25).

ذلك أن الأدب المقارن وإن تقاسم مع حقول بحث محاذية كالنقد العام مثلا، فإنه لا يستنسخ خصوصيته بل يكملها، شأنه شأن علم الجيولوجيا الذي انقسم عن علم الجغرافيا وراح يدرس الطبقات السفلية للقشرة الأرضية، فالأدب المقارن يعد على هذا تبسيطا لتعريفه– نقدا عاما تخصص في تتبع الأصول المصدرية التي تشكل خلفية النص وتتوزع داخله. والتي يطلق عليها اليوم بالمصطلح المتداول – الأنساق المضمرة– وربما أن ولادة فكرة الأنساق والنقد الثقافي، تلتقي شيئا فشيئا مع فكرة التناص بصورة خالصة عند المدرسة الأمريكية .

المنارة للاستشارات

الاحالات:

(1) Piere Brunel . Yves Chevrel. Precis de Littérature Comparée. PUF. 1989 . P : 13.

(2) محمد غنيمي هلال. الأدب المقارن.ط13.بيروت: دار العودة . 1987. ص : 06.

(3) سعيد علوش. مدارس الأدب المقارن.ط1.بيروت: المركز الثقافي العربي. 1987. ص: 08.

(4) يوسف بكار. خليل الشيخ. الأدب المقارن.ط12.مصر: الشركة العربية المتحدة 2008. ص: 09.

(5) " يفترض فرديناند برونتيير أن في وسع المرء اعتبار الأنواع الأدبية مماثلة للأنواع في الطبيعة، فإذا ما بلغ النوع الأدبي درجة معينة من الكمال، فلا بد أن يهزل ويشيخ ثم يموت ... وفوق ذلك يجري تحول الأنواع إلى أنواع أعلى تماما حسب نظرية النشوء والارتقاء لداروين" ينظر رينييه ويليك. أوستن وارين. نظرية الأدب. ت: محي الدين صبحي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. ط1981/2. ص: 271.

(6) يوسف بكار. خليل الشيخ. الأدب المقارن. مرجع سابق .ص: 09.

(7) عبده عبود. الأدب المقارن مشكلات وآفاق. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. 1999. ص: 28.

(8) CL.Pichois et AM Rousseau. Quest – ce- que la littérature comparée. 2 ed . Armand Colin. Paris2000. P :28.

(9) للتوسع أكثر ينظر David,Marrau: American Cultural Critics, UNIV of Exeter Press, Great Britain, 1995,P: 68/90 .

(10) سعيد علوش. مدارس الأدب المقارن. مرجع سابق. ص: 11.

(11) CL.Pichois et AM Rousseau. Quest – ce- que la littérature comparée. OP. cit. P : 151

(12) سعيد علوش. مدارس الأدب المقارن. مرجع سابق. ص: 14.

(13) Ernst, Cassirer., An Introduction To Philosophy of Human Culture. Val UNIV , Press. USA. P: 178.

(14) رينييه ويليك. أوستن وارين. نظرية الأدب. مرجع سابق. ص: 141.

(15) جون فليتشر" نقد المقارنة". تـ: نجلاء الحديدي. مجلة فصول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ع03) 1983 .ص:59.

(16) سعيد علوش. مدارس الأدب المقارن. مرجع سابق. ص:30.

(17) المرجع نفسه. ص: 138.

(18) ميجان الرويلي. سعد البازعي. دليل الناقد الأدبي.ط2.بيروت: المركز الثقافي العربي. 2000. ص: 27.

(19) محمد مدني. مستقبل الأدب المقارن في ظل العولمة.ط1. مصر: دار الهدى. مركز دراسات المستقبل. جامعة المنيا. ص: 13.

(20) المرجع نفسه. ص: 82.

(21) حسام الخطيب. الأدب المقارن في عصر العولمة. على الموقع. www.nizwa.com .

المنارة للاستشارات

(22) Steven. Totosy. Comparative Litérature. Theory.method.Application. Ed : Rodopi. Amsterdam. 1998.P : 14.

(23) أرثر أيزابرجر. النقد الثقافي. تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة. ت: وفاء إبراهيم . المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ط1 2003 .ص: 30.

(24) عز الدين المناصرة. علم التناص المقارن.ط1.الاردن: دار مجدلاوي. 2006. ص: 05.

(25) عمر زرقاوي. الكتابة الزرقاء، مدخل إلى الأدب التفاعلي، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، (العدد 65)، 2013، ص: 90.

المنارة للاستشارات